(( واخفض لهما جناح الذل ))

عبدالله بن محمد حفني

إمام وخطيب جامع هيا العساف بالجميزة

موقع جامع هيا العساف : <http://www.hayaalassaf.com>

القناة الرسمية على اليوتيوب : https://www.youtube.com/channel/UCq3VB0Xi1Zorm3\_Hje4JaCw

الأولى

إذا بلغ الغلام سن التكليف .

إذا تجاوز الشاب سن الثلاثين .

إذا بلغ الرجل أشده وبلغ الأربعين .

إذا عاش الرجل إلى الستين وأمدّ الله عمره إلى السبعين .

إذا انقضى عام وبدأ عام .

إذا أقبل الليل وأدبر النهار .

إذا مضى العمر وانقض الزمان .

هذه المراحل الزمنية ، والتغيرات الكونية ، والأعوام المطوية تدعونا إلى وقفة محاسبة ولحظة مراجعة .

فالحياة الدنيا هي فرصتنا الوحيدة للعمل الصالح .

ﭽ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉﮊ ﮋ ﮌ ﮍﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﭼ الروم: ٥٤

فالغلام أصبح شاباً ، والشاب أصبح كهلا ، والكهل أصبح مسنّاً ، والموت يغدو ويروح بيننا ، والدنيا ولّت مدبرة ، والآخرة أتت مقبلة .

فغداً يكون الحي منّا ميّتا .

غداً سنرحل من هذه الدنيا ومتاعها، وزخرفها، ومراكبها، وشهواتها بما استودعناه فيها من خير وشر، وسيئ وحسن .

غَدًا تُوَفَّى النُّفُوسُ مَا كَسَبَتْ وَيَحْصُدُ الزَّارِعُونَ مَا زَرَعُوا

إِنْ أَحْسَنُوا أَحْسَنُوا لأَنْفُسِهِمْ وَإِنْ أَسَاءُوا فَبِئْسَ مَا صَنَعُوا

ﭽ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﭼ يس: ٥٤

معاشر المؤمنين ..

كنت البارحة أقلب في الصفحات ، وأقرأ في بعض الكتب والمقالات ، وأجمع وأكتب لأول خطبة جمعة في هذا العام ، فوقفت على سؤالٍ عجيب ، وجوابٍ أعجب ، حرّك في النّفس أشجاناً ، وولّد في القلب أحزاناً ، فدمعت العين ، وتألّم القلب ، وتذكرت واقعاً أليماً ، ولا عجب فنحن في آخر الزمان .

فالسائل يقول : أمي وأبي يطلبونني عدداً من الطلبات وأنا أقرأ وأدرس ، فأعتذر لانشغالي بمذاكرتي ، فما الحكم في ذلك ؟

فكان الجواب على السؤال عظيماً ، والرّدّ أليماً .

كان الجواب لهذا الشابّ الذي لا زال يتقلّب في أحضان والديه ، ويتنعمّ بوجودهما بين يديه .

يا بني بالله عليك لا تفوتنّك مصاريع باب الجنّة فأنت الآن تجمع في مثاقيل الحسنات .

يا بني اعلم رعاك الله أنّ فئاماً من الشباب لا يتنعمون بالنعمة التي أنت الآن في أعطافها ، فقد قبض الله أرواح آبائهم وأمهاتم .

فكلما لفحتهم الذكريات على فقد الآباء والأمهات ، تقطعت نياط قلوبهم بالنّدم والحسرات ، ولكن هيهات هيهات ، يريدون لحظة يروون فيها نفوسهم من برهما ، ويبلّون ظمأ الإحسان لوالديهما .

والله لا أنسى شاباً رأيته في المقبرة يدفن أمّه وهو يصرخ ويعلو بصوته عند قبرها : دعوني معها أدفنوني في صحبتها واروني التراب معها.

لا تلوموه.. ولكن واسوه وصبروه وعزوه وذكّروه فقد تفجرت منه الأحزان، وأظلم المكان، وغاب عن حياته أعظم إنسان .

حقا يا قوم إن فقد الوالدين مصاب عظيم.

أيها الابن .. هل جربت فقد والديك؟

هل جربت فقد أمك أو أبيك؟

تعال معي أصفه لك فوالله يابني ما بين عشيّة وضحاها سيختفي عن حياتك من كان سبباً في حياتك .

والله يا بني عمّا قريب ستصحو على الخبرِ الأليم أنّ أباك قد مات، أو أنّ أمّك قد ماتت وأنت لا تصدّق وحق لك أن لا تصدّق، قفد كانا معك قبل أيام، كنت معهما تتحدث إليهما ويتحدثان إليك عن الدين والدنيا والزواج، والأسرة، والوظيفة، والمستقبل ؛ كانا يملأن البيت عليك بنصحهما وتوجيههما.

أيها الإبن إذا فقدت أمك أو أباك والله ستفقد سهما من سهام الليل كان يسكب العبرات ويرفع الدعوات من أجلك.

إذا فقدت أمك أو فقدت أباك ستفقد أبواباً من أبواب الجنة.

أيها الإبن إذا فقدت أمك، والله ستظل محتفظا برقمها، وسجادتها، ومصحفها، ومسبحتها، ولباسها، وحذائها.

أيها الإبن إذا فقدت أمك ستتحرى مصلاها، ومضجعها، وموضع جلوسها ستبكي على موضع فراشها ومخدعها.

أيها الإبن إذا فقدت أمك أو أباك فلن تسمع أيها الشاب من يقول لك: (يا بني يا ولدي يا فلذة كبدي يا قرة عيني) .

أيها الإبن إذا فقدت أمك أو أباك لن تجد حضناً يحتويك، ولا حباً صادقاً يأويك لن تجد من يعيش معك في نصبك وهمك وحزنك وفرحك والسؤال عنك.

أيها الإبن إذا فقدت أمك أو أباك لن تجد من يوقظك لصلاتك، وطاعتك، وعملك، ومدرستك، ويشاركك أحزانك، وأفراحك .

أيها الإبن إذا فقدت أمك فقد انهدم السقف، وتمزق الثوب، وتعرّى الجسد ؛ فقد فقدت روح الروح.

والله يا بني لقد أدركنا حقاً بعد موت الأم لماذا وضع الله مفتاح الجنة تحت أقدامها؟

كم من شابٍ صلى على والديه تتقصّف أضلاعه الآن يتمنّى تلك الساعة التي يحمل فيها أكياساً لهما من السوق، ويميط عنهما الأذى .

أو يفتح باب السيارة لهما ليقلّهما لبعض شأنهما..

أو يدخل عليهما بحفيدهما يتنازعان حمله والسرور يبرق في وجهيهما..

أو يكون هو وأشقاؤه خلف الوالد وهو يدخل وليمة أو مناسبة ؟

وكم من رجل يرى الآن في غرفة والدته الراحلة بقايا حبيبات دوائها التي كان ينظم أقراصها لها ؟ يعصره الحنين عصراً على تلك اللحظات..

وما بيده شيء ، وربما وارى دمعةّ حسرة وندم على لحظة الفقد والغياب..

ولا شيء أشجى على أشداء الرجال من دمعة خفية على ذكرى والديهم..

فهذا رجلُ ماتت أمّه فلم يجد شيئاً يبلّ كبده إلا أن يأخذ "شيلة" والدته الراحلة كل ليلة وينام عليها ويستنشق رائحتها..

بالله لو قيل لمثل هذا كم تدفع لتعود والدتك؟ فسيقول الدنيا كلها..

يا بني .. أما ترى ربنا في كتابه يطلب منا أن نتذلل له سبحانه..

ومع ذلك قال عن الوالدين ﭽ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﭼ الإسراء: ٢٤

قال سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: ﭽ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﭼ : اخضع لوالديك كما يخضع الْعَبْد للسيد الفظ الغليظ .

بالله عليك أتعرف شيئاً في كتاب الله شنّع عليه القرآن أكثر من الشرك؟

انظر كيف يذكر الله حق الوالدين بعد حق الله بالتوحيد، وكيف يذكر العقوق بعد الشرك:

قال الله ﭽ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜﮝ ﮞ ﮟ ﭼ النساء: ٣٦

وقال سبحانه ﭽ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝﯞ ﯟ ﯠ ﭼ الأنعام: ١٥١

وقال سبحانه ﭽ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﭼ الإسراء: ٢٣

ما أكثر ما يلتمس المرء من عالم ورجل صالح ذي خبرة عرك الحياة أن يوصيه بشيء ينفعه.. والله جل وعلا يتحبب لعباده بلفظ الوصية فيقول في ثلاثة مواضع من القرآن :

ﭽ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡﭢ ﭼ العنكبوت: ٨

ويكرر سبحانه الطلب بنفس اللغة "الوصية" فيقول:

ﭽ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭼ لقمان: ١٤

ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚﭛ ﭼ الأحقاف: ١٥

يا بني ... الله الخالق ، العليم الخبير بعظمته وكبريائه "يوصينا" بالوالدين ماذا بقي من هول الحق لهما بعد ذلك؟!

لماذا لا نتنافس في برهما ، والإحسان إليهما ، وقضاء حوائجهما ، وإدخال السرور عليهما ؟

روى الإمام ابن سعد في طبقاته بإسناده قال : قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ: بَاتَ عُمَرُ يُصَلِّي وَبِتُّ أَغْمِزُ رِجْلَيْ أُمِّي وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لَيْلَتِي بِلَيْلَتِهِ . الطبقات الكبرى (1/191) .

هذا هو الفقه الدقيق في مراتب الأعمال .. فقد بقي الإمام ابن المنكدر عامة ليله يدلك رجلي أمه ، ويخفّف إعيائها ، ويطيب خاطرها ، ويتقرّب إلى الله بذلك ، وأخوه عمر صافٌّ قدميه بين يدي الله يصلي الله ومع ذلك ، يرى محمد بن المنكدر أن برّ الوالدين أجلُّ في ميزان الله من التهجد .

**أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم ....**

الثانية

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية وابن عساكر في تاريخ دمشق أن التابعي ميمون بن مهران رزقه الله بابن صالح عالم وهو الحافظ عمرو بن ميمون بن مهران ، وهو من رجال الصحيحين وكان هذا الابن باراً بأبيه ، فقد جاء في ترجمته أنه قال: خرجت بأبي أقوده في بعض سكك البصرة ، فمررت بجدول (النهر الصغير) فلم يستطع الشيخ يتخطاه فاضطجعت له فمر على ظهري ثم قمت فأخذت بيده . تاريخ دمشق لابن العساكر (61/352) .

فانظر رعاك الله إلى هذه الصورة الرائعة من البر وخفض جناح الذّل ، فحين جاء الأب الذي أرعدت السنون مشيته فما عاد أن يقوى أن يعبر نهراً صغيرا ..

تحوّل الابن إلى جسر يغمر نفسه في الطين كي يخطو والداه فوقه بقدميه.

يا لله العجب ! لا إله إلا الله ..

عليك رحمة ربي يا عمر بن ميمون أكنت محظوظاً أنك لم ترى شاباً يستكثر اليوم أن يدفع عربة والده المقعد تحت سياط الظهيرة ؟

أكنت محظوظاً أنك لم ترى شاباً يستثقل ويشمئز من مرافقة والده إلى طبيب يكشف دائه ، ويعرف بلائه ، ينظر إلى والده المغطى نصفه والمكشوف نصفه لأنابيب الحياة وهو يسارق النظر لرسائل أصحابه في جواله تستحثّه للنّزهة ، وتدعوه للسّمر والسهر ، فيختلق الأعذار والأكاذيب ليركب الريح مع أصحابه في مسامرة الضياع .

يا بني .. ألم يلفت انتباهك أن الله إذا مدح أحداً ببر الوالدين ذكر النفوس العاصية الشقيّة المتجبرة؟

لماذا؟! لأنها هي معدن العقوق، قال الله عن يحي ﭽ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭼ مريم: ١٤

وقال سبحانه عن عيسى ﭽ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﭼ مريم: ٣٢

يا بني .. أما سمعت أنّ الحافظ عبدالله بن عون جاء في ترجمته أنّ أمه نادته يوماً فأجابها ، فعلا صوتُهُ صوتها ، فأعتق رقبتين .

الله أكبر .. الله تعالى جعل عتق الرقبة من الكفارات في المناهي العظيمة كقتل الخطأ ، والظهار ، والوطء في نهار رمضان ، وابن عون يعتق رقبتين لرفع صوته استجابةّ لنداء أمّه ، فقد بلغ من البرّ مبلغاً جعل رفع الصوت عنده من أكبر العقوق !

واغوثاه .. واحسرتاه .. من شاب يصرخ من غرفته ، يصرخ على أمّه مشمئزاً من طلباتها ، معترضاً على نصحها .

واغوثاه .. من شاب يتفنّن في قرع أبواب سياراته يستعجل والدته الخروج من المنزل ليذهب بها لمشوار التمسته منه ، فترى الوالدة المسكينة تتقافز تجمع أغراضها مشوشة الذهن تحت ضغط منبهات السيارات ، وابن عون يعتق رقبتين لأن صوته أرفع من صوتها وهو يستجيب لندائها ، أي فارق بيننا وبين القوم يا كرام ؟

لنكن صرحاء مع أنفسنا ونقر ونعترف أنّ هذه النماذج من البرّ لا صلة لنا بها فبيننا وبينها بون شاسع ، فهؤلاء يتنافسون بين إحياء الله في التهجد أم إحياء الله في بر الوالدين ، وكلاهما بالنسبة لنا اليوم خارج النمط إلّا من رحم الله .

فوصيتي لك يا بني قبل الفوات أن تسابق الريح في تحقيق مطالبهما، وأن تسعى سعياً حثيثاً في برهما والاحسان إليهما ورب الكعبة سترى الخيرات والبركات تصبّ عليك صبّاً ، وسترى من أبواب التوفيق ما لا يخطر لك على بال .. ﭽ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﭼ الإسراء: ٢٣

تذكر يا بني ما ذكره الإمام البخاري رحمه الله في الأدب المفرد وصححه الألباني : عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنِّي خَطَبْتُ امْرَأَةً، فَأَبَتْ أَنْ تَنْكِحَنِي، وَخَطَبَهَا غَيْرِي، فَأَحَبَّتْ أَنْ تَنْكِحَهُ، فَغِرْتُ عَلَيْهَا فَقَتَلْتُهَا، فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: أُمُّكَ حَيَّةٌ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: تُبْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَقَرَّبْ إِلَيْهِ مَا اسْتَطَعْتَ. قال عطاء : فَذَهَبْتُ فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ: لِمَ سَأَلْتَهُ عَنْ حَيَاةِ أُمِّهِ؟ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَعْلَمُ عَمَلًا أَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ بِرِّ الْوَالِدَةِ .

أيها الإبن .. بادر قبل أن تأتي الساعة التي عشت مرارتها وحسرتها، اغتنم حياتهما قبل أن تعيش مرارة فقدهما ولحظة موتهما وغسلهما ودفنهما ، فأي طعم للحياة بلا أم ولا أب ؟

ﭽ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﭼ غافر: ٤٤